

المولد بين التاريخ والأدب

الأديب الأستاذ فايز علي (*)

مقدمة:

المولد احتفال شعبي جامع، لذا تقتضي دراسته تجاوز الفواصل الموضوعية بين الديانات الكثيرة التي عرفتها مصر عبر تاريخها الحافل. وإذا بنا ونحن ندرس احتفال المولد نعيد تجميع أجزاء التاريخ المقسم لغرض الدراسة إلى عصور متتالية. إن المولد معرض حي للشخصية المصرية وتقاليد العتيقة التي تأتي أن تتدثر سواء كانت روحية دينية، أو فنية تتعلق بالغناء والرقص والموسيقى، أو مادية من طعام وشراب وأزياء، وأنشطة اجتماعية أخرى، وهكذا دواليك.

تمهيد:

لعله لا يوجد احتفال أصدق تعبيراً عن روح الشعب المصري خير من "المولد"، ذلك الاحتفال الشعبي الذي تسهم فيه الجماهير ممثلة في طوائف الحرفيين والتجار، وممثلي أجهزة الإدارة، والطرق الصوفية.. الخ. وكان الوالي حيناً أو الخليفة حيناً آخر يتقدم تلك الحشود. واحتفال المولد - وإن ارتبط بالحضارة الإسلامية - يضرب بجذوره في عمق التاريخ المصري وذلك أنه احتفال شعبي تحيا فيه عادات وتقاليد عتيقة ذات روافد مصرية أصيلة.

والمولد يحيل إلى احتفال آخر ذي طابع شيعي، وهو المأتم، وكلاهما يقتضينا التعريف بالصوفية والتصوف بطريقة إجرائية تناسب غرض البحث، وكلاهما يطرح دور العظماء في مسيرة التاريخ، وقدرتهم الكاريزمية في إلهام الجماهير من المريدين والمحبين، الذين بهم يقتدون، وعلى طريقهم يسيرون^(١).

التصوف:

ربما اشتقت لفظة التصوف من صفاء الروح والقلب، أو الاتشاح بمسوح الصوف التي كان يرتديها الرهبان^(٢). وقد عرف التصوف في الإسلام تأسيساً على

تقاليد الزهد والورع المستمدة من الكتاب والسنة، وإن كانت ثمة تأثيرات خارجية كتلك الهندية والصينية واليونانية، وإن كان علينا ألا نغفل المؤثرات المصرية القديمة^(٣)، فهي الأقرب روحياً وإن تكن بعيدة زمنياً نوعاً ما. ويمكن تمييز تيارات^(٤) مختلفة بين التصوف المعرفي والأخلاقي، والسني والشيعي والفلسفي.. وقد ظهرت الطرق الصوفية منذ القرن الثاني وانتشرت في القرنين الثالث والرابع الهجريين، فعرف الطريق الذي ينقسم إلى مقامات (كالتوبة والصبر والرضا واليقين..) وأحوال (القبض والبسط، والفناء والبقاء). حتى صار للمتصوفة مصطلحاتهم ورموزهم.

والفناء من أخص أحوال الصوفية، ويعني فناء الذات البشرية في الذات الإلهية (عند الجنيد والسقطي والخراز..)، ويترتب عليه الاتحاد بالله كما قال البسطامي - وهو في صوفية الشطح: سبحاني ما أعظم شأنني!^(٥) إذ تكلم بلسان الذات الإلهية الحالة فيه. كما يعبر الحلاج (أعدم ٣٠١هـ) في شعره عن الحلول: حلول اللاهوت في الناسوت، قال: "أنا من أهوى ومن أهوى أنا - نحن روحان حللنا بدننا"^(٦).

فإذا ما انتفت الثنائية بين الذاتين كنا بصدد وحدة الوجود، وذلك مذهب ابن عربي (ت ١٢٤٠م)، الذي لا يرى في الوجود كله^(٧) إلا الله، وقد ترتب عليه قوله بوحدة الأديان: "عقد الخلائق في الإله عقائداً، وأنا اعتقدت جميع ما اعتقدوه". وقد ورد مذهب وحدة الوجود من الهند على نحو ما يرى البيروني، ولم يصعب على المتصوفة رده إلى القرآن وفق فهمهم: "كل من عليها فان"، "كل شيء هالك إلا وجهه"..^(٨) إلخ.

كان من أصول التصوف العكوف على العبادة، ومجاهدة النفس، وتنقية الروح كشفاً للحقيقة العلوية، سلوكاً للمواجد والذوق... ولكن طرأت تغيرات كبيرة على تلك المفاهيم إبان تفكك الدولة العباسية وما تلا ذلك من توسع دول إسلامية كالدولة العثمانية، وصدام ضد أوروبا، وظهور الصراعات المذهبية..^(٩) إلخ.

ما المولد؟

تقدم أن المولد احتفال شعبي جامع، في مناسبة مولد البشير محمد عليه السلام في الثاني عشر من ربيع الأول. وليس هناك ما يشير إلى أن هذا الاحتفال - بهينته المهيبة هذه - كان معروفاً على عهد الرسول وصحابته عليهم السلام.

ونعتقد أن ذكرى ميلاد محمد كانت موضع اهتمام ما. وإذا كان الفاطميون - كما يقال - هم أول من احتفل بمولد النبي، وهم شيعة كما نعلم، فإن مظفر الدين كوكبوري صاحب أربيل (ت ١٢٣٢م) كان أول حاكم سني يحتفل به^(١٠). وإن كانت تلك الأوليات لا ينبغي التعويل عليها. ولنا رأي سنفضله في تضاعيف هذه الدراسة. وفي البدء نشير إلى أن المولد سرعان ما اتسعت دلالاته، فصار يحتفل بمولد أولياء الله الصالحين، وآل البيت، وأصحاب الطرق الصوفية.. وهكذا دواليك.

وقد يتعلق احتفال المولد بمناسبة أخرى غير الميلاد، كما هي الحال في مولد العارف بالله أبي الحجاج الأقصري في الرابع عشر من شعبان، وهو ذكرى انتصاره على الراهبة المسيحية تريزا ابنة القيصر التي أسلمت على يديه^(١١).

أما السيد أحمد البدوي فله ثلاثة موالد: المولد الكبير والمولد الصغير، والمولد الرجبي^(١٢)... وهكذا دواليك.. وتلك كلها مواسم زاهرة للتجارة والرحلة الدينية والترفيهية.. ويوضح مؤرخنا العلامة علي السيد علي أن المولد من حيث الاشتقاق اللغوي يعني مكان الميلاد وزمانه أيضاً، فيشير إلى عائلة بن فهد من أهل الحجاز إبان العصر المملوكي والعصر العثماني، وكانوا يحتفلون بمولد محمد في مكة حيث كان مولده عليه الصلاة والسلام، فتقام الأذكار، وتتحرق الذبائح، وتوزع الصدقات^(١٣)..

بيد أننا نتطلع إلى مصر ما قبل الإسلام فنجد احتفال المولد متأصلاً عند أسلافنا سواء في المسيحية أو في عصور الفراعنة، الأمر الذي يفسر لنا استمرار تقاليد وطقوس كثيرة لا يمكن فهمها وتأويلها إلا في ضوء المعتقدات القديمة السابقة للإسلام. فقد عرف أسلافنا مولد فرعون وكان مولداً سماوياً، ولعل حتشبسوت أول من صورته في معبدها المعروف بالدير البحري^(١٤). وعموماً فقد ورث المصري

نزعة التجسيد أو الحلول من معتقداته القديمة، التي أبت إلا أن تمتزج بالإسلام في مثل احتفال المولد^(١٥).

تجلي الروح المصري في احتفال المولد:

تقدم أن العادات والتقاليد من خصائص روح الشعب التي لا تختفي عبر العصور، وإن اعتنق الناس ديانات جديدة غير التي كانوا أسلافهم يسيّدون بها. وسيمدنا "المولد" بدلائل كثيرة على صحة هذه الفرضية، ونشير هنا بإيجاز إلى بعض تلك الملامح التي نعتقد أنها ظلت ميراثاً مشتركاً للمصريين على اختلاف بيناتهم وتعدد مشاربهم.

الظهور:

أول ما يسترعي انتباهنا هو مشهد الخروج إذ تخرج الجماهير عن بكرة أبيها في أزهى حلة وأبهى هيئة لتعبر عن حبورها محتشدة في الساحات، التي تعج بمظاهر الاحتفال، فتقام الخيام ليستراح فيها، وتقدم الأطعمة والأشربة. كما ترفرف الأعلام، وتنهمك الجموع في التعبير عن بهجتها في صورة جماعية منقطعة النظير، فتبدو كأنها في يوم الحشر. وخير مثال يضرب هو احتفال أوبست (عيد آمون رع) رب الإمبراطورية في الدولة الحديثة^(١٦).

وتحتفظ جدران معبد الأقصر بتصويراته، فنرى الكهنة يجرون مركب آمون على ضفاف النيل، ونرى عازف النفير وقارعي الطبول والراقصين والبهلولات والجمع الغفير يرافق موكب آمون الذي يتقدمه فرعون.. وكانت الخيام تضرب، فضلاً عن المقاصير المبنية لاستقبال ذلك الموكب لتقدم شتى وسائل الراحة والتكريم. كان ذلك الاحتفال يستغرق عشرين ونيفاً من الأيام! في عاصمة مصر العالمية: طيبة ذات المائة باب التي وصف بهاءها وعزها هو ميروس في الإلياذة.. والذي يحضر احتفال مولد أبي الحجاج الأقصري في رحاب مسجده^(١٧) المتكى على صرح معبد آمون بالأقصر يشده بمظاهر الاتفاق والتشابه التي تصل إلى حد التطابق بين ذلك الاحتفال الشعبي ذي الطابع الإسلامي وعيد آمون الموغل في القدم: الزورق

أ. فايز على

(المقدس) والخيام، والجماهير المبتهجة بين راقصين وموسيقيين وبهلوانات وحملات الأعلام...

كذلك تتشابه أنواع المخبوزات والفطائر، وغيرها من القرابين التي كان يتصدق بها لإكرام الضيفان والزوار والمريدين وعابري السبيل.. وإذا بنا نتوارث تعبير القربان المصري القديم: "ألف من الخبز.. ألف من الجعة.. ومن كل قربان طيب"^(١٨).. ألسنا نقول إلى يومنا هذا: ألف (من) عيش؟ أليس تجهيز الكعك (كيك بالمصرية) والشريك والمنين والبتا.. من أهم مظاهر الاحتفال بالأعياد حتى يومنا هذا؟ أليس العيد فعلاً مشتقاً من العادة والاعتیاد "وفرحة قلب ربما اعتاد عيده وفي الاحتفالات الشعبية تنصهر ربما في الوعي أو اللاوعي أو في الذاكرة الجمعية - شتى المناسبات، فإذا أطلقت كلمة موالد فإنها لا تعني مناسبات الميلاد وحدها، بل شتى المناسبات السعيدة: قديمها وحديثها، وفي مقدمتها احتفالات التتويج (تتويج فرعون أو الملك..) والزواج المقدس (كما في عيد أوبت)، وأعياد النصر، وكل ما اتصل بها أو تفرع عنها من احتفالات فرعية أو طقوس إجرائية^(١٩).

وبدلاً من فرعون الذي كان يشرف على الجماهير المحتشدة مكللاً بتاج الوجهين يمكن أن نرى الخليفة الفاطمي أو الملك الأيوبي أو السلطان المملوكي أو الخليفة العثماني أو من ينوب عنه من ولاية وأمراء وقضاة وأولى الأمر والنهي.. هنالك تلنقي الشعوب بقادتها، والجماهير بساستها، فنعم المناسبة تلك لتأكيد المودة بينهم، وعقد رباط المحبة. ونعتقد أن الحكام المسلمين كانوا من الذكاء بحيث أدركوا ما لتلك المناسبات من أهمية سياسية فلم يفرطوا في استغلالها.

الطواف:

كذا كان الطواف من الطقوس الهامة، ونعني طواف فرعون بالجدار الأبيض (منف العاصمة القديمة) برهاناً على أنه يسيطر سلطانه على البلاد^(٢٠). عرف ذلك الطقس منذ فجر التوحيد السياسي لمصر، وظللنا نحن المصريين نطوف حاملين زوارق الأولياء على الأعناق، وهي نسخة من زوارق الأرباب القدامى، أو حاملين التوابيت والنفوس الرمزية التي تحاكي نعش النعوش أوزير رب الموتى وقاضي

المولد بين التاريخ والأدب

المحكمة الأخروية. ولا زال بعض آل البيت أو الأولياء - ومنهم الإمام الشافعي - يلعبون دور ذلك القاضي العدل في معتقداتنا الشعبية.

الطواف المقصود إذن لا علاقة له بالطواف بالكعبة، فيما نرى، وإنما ارتباطه واضح في المخيلة الشعبية على نحو ما أوضحنا، ولعل الطواف بأضرحة الأولياء - في المعتقد الشعبي - يقرب ما بين القدوة والذين به يقتدون، وبزودهم بقبس من إلهامه لعلهم به يهتدون، فالولي قطب (ثابت) والمريدون يتوافدون طائفين به.

ومن أوزير؟ إنه القمر^(٢١). نعم، كان القمر يرمز إلى أوزير فالقمر المتناقص حتى الزوال يشير إلى وفاة أوزير، والقمر النامي حتى بدر التمام (قمر ١٤) يحاكي مبعث أوزير بعد مقتله! وكذلك الأئمة والأولياء الصالحون يشبهون بالقمر وبدر التمام، وهم كذلك - مثل أوزير متصفون بالبهاء والحسن، ولا غرو فأوزير يحوز لقب: دائم الحسن (ونن - نغر) عندما يبعث من جديد وقد انتصر على الشر^(٢٢).

فلنصخ إلى ما قاله المرتضى الزبيدي (ت ١٧٩١) في شيخ السادات:

هو روح الإله في كل مجلى .: هو تاج الجمال والعلياء

وما قاله فيه آخر:

كناه مولاه أبا الأنوار إذ .: من نوره تتولّد الأنوار

وقد قيل في إمام آخر:

ولا عجب أن يطلع البدر في الدجى .: بأية وقت شاءه مالك الأمر

فأصبح مخطوب الجمال ورونق الـ .: كمال وحامي الحق بالبيض والسمر^(٢٣)

إلى أي حد يكون التشابه؟ وما دلالة ذلك؟ لم تتطابق بقايا الأساطير تلك إذن غباراً إلى غير رجعة، بل تمثلتها الشعراء وأعادوا توظيفها. وليس أفسح من الشعر مجالاً تصول فيه أخيلة العامة وتجول.

طقس الرحلة النبيلة:

عادة ما ترتبط احتفالاتنا نحن المصريين بالنيل، إذ يبحر الناس مصطحبين أبناءهم، وسط قرع الطبول وإيقاعات البهجة. لازال هذا دأبنا في موالدنا، وهو ما

أ. فايز على

أخبر به هيرودوت حين زار مصر قديماً فقال: "ولقد سبق المصريون الشعوب إلى إقامة الأعياد العامة والمواكب العظيمة، وعندهم تعلمها اليونانيون... إذ يبحر الرجال والنساء معاً.. ويطلب بعض النسوة على الطبول التي بأيديهن، وبعض الرجال يزمرون.. أما باقي النساء والرجال فيغنون ويصفقون.." (٢٤).

قال هيرودوت هذا في معرض حديثه عن الإلهة إيزيس في مدينة بوزيريس (أبو صير بانا، وهو صاحب المقولة المشهورة إن المصريين أشد شعوب العالم تقوى. ولا يخفى ما للنيل من دلالات، إذ يذكرنا فيضانه السنوي ببعث أوزير من مرقده، وتجدد الحياة في شتى صورها. وثمة روايات لا حصر لها عما كان للنيل من أهمية في حياة مصر كلها، وقد ظل دور النيل قائماً باستمرار (٢٥).

زورق أوزير:

كان لأوزير مقام في أبيدوس قرب عرابة سوهاج المدفونه. وهي تشبه مكة عند المسلمين، إذ كانت مقصد الحجاج من كل صوب وحذب، أثناء الحياة وبعد الممات (رحلة حج رمزية). فكانت الزوارق تشق عباب النيل لإدراك البركة من أوزير، جينة وذهاباً (٢٦).

وتعددت مقامات أوزير في سائر أرجاء مصر لتصير نماذج أولى لمقامات القديسين (المسيحيين) والأولياء (في الإسلام).

كما كان لأوزير زورقه المقدس الذي يستقله مع قاصديه من الحجيج، ولم يزل للأولياء (المسلمين) قواربهم النيلية التي كانوا يستقلونها للتنقل مع مريديهم في ربوع مصر العظيمة. وإذا كان الإسلام - كما روي عن النبي - يجب ما قبله (من كفر) فإنه تعايش مع حضارات البلاد المفتوحة لتزدهر معه حضارة جديدة تجمع أشتاتاً من التقاليد والفنون متعددة الأطياف.

التحطيب والصراع الطقسي:

لانتصار أوزير على ست منزلة كبيرة في المعتقد المصري القديم، الذي نؤمن أنه لا يزال يعيش في خواطر الناس، وكان يصور في ثمانية مشاهد ينطبق عليها وصف المسرحية، الأمر الذي يؤكد أن الدراما ظهرت في مصر قبل أن تظهر

في بلاد اليونان^(٢٧). إنها مسرحية آلام أوزير، وترجع إلى عهد الأسرة الثانية عشرة (تحديداً سنوسرت الثالث ت ١٨٤١ ق.م) ونلخصها: في البداية يقود وبواووت (فاتح الطريق) الركب، وهو رب يظهر في هيئة ابن آوي، ثم يظهر أوزير مبحراً في رفقة الحجاج، ليحتفل بانتصاره، ثم يقوم تحوت رب المعرفة بتمجيد جثته، وبعد ذلك يحنط أوزير، ويدفن في قبره بالعرابة. وتقام شعائر الدفن، فتتحرك جنازة مهيبّة تشق الصحراء، وفي الفصل السابع ينتصر أنصار أوزير على ست وأعوانه في "يوم العراك العظيم" الذي يتجلى فيه جمال الإله المنتصر، وذلك عند ماء "تديت" قرب العرابة أيضاً.

وفي الفصل الثامن يبعث أوزير من جديد. أرايت إذن كيف كان العراك يتم باستخدام العصي بين الفريقين؟ أليس هو رقصة التحطيب المشهورة عندنا في الريف؟ وإليك الآن - لمزيد من الدقة - رواية هيرودوت عن ذلك الصراع الطقسي بين أنصار الإلهين، الذي كان يحدث أيضاً قرب سايس في الدلتا. يقول: "وعند ميل الشمس إلى الغروب تنصرف قلة من الكهنة إلى الاهتمام بتمثال الإله، وتقف أكثرينهم مزودين بعصي من الخشب. بينما يحتشد عند مدخل المعبد وفي مواجهتهم جمع آخر من الرجال يربو عددهم على الألف، يوفون بالنذور وبأيديهم العصي أيضاً.. وتجر الفئة القليلة محفة ذات أربع عجلات، تحمل المقصورة والتمثال الذي بداخلها. وبينما يمنعهم من الدخول الكهنة الذين يقفون عند المدخل، يتقدم الذين يوفون بالنذور لنجده الإله، ويضربونهم. فيدافع هؤلاء عن أنفسهم وعندئذ تنشب معركة حامية بالعصي؛ فتشج رؤوس بل يموت كثيرون - كما يخيل إليّ - بسبب جراحهم. ولو أن المصريين أكدوا لي أنه لا يموت منهم أحد"^(٢٨). تلك طقوس مسرحية تأتي في سياق درامي متكامل لاشك أنه ظل نموذجاً يقوم المصريون بمحاكاته في موالدهم واحتفالاتهم الشعبية التي تغير - عبر العصور - أبطالها، فأصبحوا من أولياء الله الصالحين وأهل الصوفية. والمطالع لمذائح الأولياء يقع كثيراً على تصورات لحروب اشتبك فيها القنا، وجمحت الخيول، وصالت الفرسان. ويصعب علينا - والحالة هذه -

أ. فايز على

تفسير ذلك إلا في إطار المعركة الكبرى التي تدور رحاها بين الخير وأتباعه من جهة، والشر وأعدائه من جهة أخرى - يقول محمد البكري (ولد ٩٣٠هـ) مفتخراً:

وسرت وثغر النصر يبسم سابحاً .. لهاماً به وسع النفائف طافح

كأن مجر الجيش بالقوم زأخر .. خضم، وفلك الخير فيه سوابح

كأن أعادينا ولا بلغوا المنى .. أكف لأسياف المنايا تصافح

ونحن ملوك الحرب والصيد صيدنا .. وليس لنا إلا الأسود جوارح^(٢٩)

ذاك نموذج يذكرنا بفخريات الشريف الرضي (ت ٤٠٦هـ) وكان نقيب

الأشراف الطالبين في بغداد، وأشعر بني هاشم^(٣٠). وهو القائل:

وما المدح إلا في النبي وآله .. يرام وبعض القول ما يتجنب

ونضيف باختصار أن أوزير قدم نموذج الراعي الصالح الذي يفدي البشر

مضحياً بنفسه، ضارباً المثل لكل قائد من بعده.

مولد أبي الحجاج الأقصري:

تقدم أن طيبة كانت المسرح الذي استقبل ذلك القادم من بغداد: أبا الحجاج

(ت ٦٤٢/١٢٤٤م) ليستعيد ذكرى آمون من جديد^(٣١). كان شيخنا إذن معاصراً لابن

عربي والسهورودي، وعلى يد الأخير تلقى مبادئ الفقه الشافعي. وفي مولده تظهر

الأسرة الحجاجية في هواجسها، وقد اصطفت مواجهة لصرح معبد الأقصر ومسلته.

وأثناء الموكب تتلى الأهازيج في مديح الأقطاب كالسيده نفيسة، وسيدي

المقشّش صاحب المقام الشهير المجاور، وكان طبيباً راهباً دخل الإسلام، وصار

مقصداً لطالبي البر، والشفاء^(٣٢). كما يشاد بالمرسي والبوصيري والقباري والجزولي

والقناوي، والطواب إمام قوص.. "وأبو الحجاج دا جدنا وجدينا.. والصابوني دا منجد

المتضايق. وأبو العباس دا جدنا وجدينا.. والشيخ طايح دا منجد المتضايق.. شقوا

البلاد الأربعة الأقطاب.. ساكن المحجر جدنا البغدادي. ساكن الأقصر يوسف أبو

الحجاج. ساكن قوص شيخ أحمد الطواب. ساكن قنا عبد الرحيم يا قناوي^(٣٣). ونلاحظ

أن كل مركز أو ناحية كان له وليه أسوة بأرباب الأقاليم المصرية القديمة، إذ كان لكل

إقليم في مصر ربه المحلي.

ويبدأ التجهيز للمآدب قبل المولد بأسبوعين، ويعد خصيصاً الثريد والكباب (كرات مكببة من اللحم الأحمر مخلوطاً بالبصل والقمح المدشوش) وكان أبو الحجاج يقدمه لضيوفه ومريديه. وأما القارب. وقد تقدم الحديث عنه - فقد كان صلة بين الشيخ ومريديه، وكذلك كان قارب أمون، يستخدمه لزيارة المرضى والمقعدين، والمعوزين الذين قعدت بهم الحاجة عن المشاركة في الاحتفال، فإذا بصاحب الاحتفال يعودهم، ويتفقد أحوالهم.

كذلك يجب أن تكون علاقة الأعلى بالأدنى. أليس ذلك درساً في السياسة أيضاً؟^(٣٤) ليست الزعامة (السياسية) تعالياً بل هي تواضع. كذلك كان محمد بن عبد الله، الذي روي عنه: لا يدخل الجنة من في قلبه مثقال ذرة من كبر^(٣٥).. وإن حياة أبي الحجاج أيضاً لحظة للدارسين، فقد ولد في بغداد سنة ٥٣١هـ/ ١١٣٦م، وظل بها حتى سنة ٥٥٥هـ/ ١١٦٠م، وتلقى الفقه الشافعي على يدي السهروردي^(٣٦).

واضطر لمغادرة بغداد لما عاناه السنة من تضيق. فرحل إلى مكة طالباً العلم، وكان يعمل بغزل الصوف وحيآكته.. ويرقى شيخنا بنسبه إلى الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه^(٣٧). وهذا شأن أئمة التصوف جميعاً فيما نعلم. فأبو الحجاج إذن مثل أعلى للفتوة كما كان علي.

كذلك قمننا قصة زواجه من ترزة بنت القيصر التي أعلنت إسلامها على يديه لما رأت من كراماته، وقد تنبأت لها النبوة بذلك، على نحو ما نجده في الأدب الشعبي منذ نبوءة عرافه معبد دلفي عند اليونان^(٣٨). هكذا كان الصوفي يتكسب من عمل يده، ويحرص على طلب العلم، وكان اعتكافه ذكراً لله وزهداً فيما في أيدي الناس^(٣٩).

من كرامات الأقصري:

الكرامات أفعال خارقة للعادة تنسب إلى الأولياء. ومما قاله الغزالي فيها: لو رأيت شيخاً يطير في الهواء، أو يمشي على البحر، أو يأكل النار أو غير ذلك وهو يترك فرضاً من فرائض الله أو سنة عامداً فاعلم أنه كذاب، وليس فعله كرامة، بل هو

أ. فايز على

استدراج نعوذ بالله منه^(٤٠). لكننا نقدم بأن المصري منذ القدم قد ألف الخوارق والإيمان بالسحر، فقد كانت إيزيس هي عظمة السحر (ورث - حكاو).

ولا غرو أن يؤمن العوام بالتمائم والأحجبة، والقدرات الغيبية للمشايخ والأولياء، تلك التي تتجاوز مألوف قدرات البشر، وقد كان المصريون يتداون على يد القديس مرقس ومريديه بأيقونات السيدة العذراء (مريم)^(٤١).. وعلى نحو مشابه كان القوم في التاي وآسيا الوسطى والغربية يعتقدون في قدرة الحكيم (شامان) على الاتصال بالحقبة العليا، وإقامة علاقة مع الأرواح والتأثير عليها، ونفي الخبيث منها، فيشفي حينئذ من تباريح الأمراض، وبقي من الشرور... إلخ^(٤٢).

ولعل اعتقاد العامة في كرامات الصوفية يدخل في هذا الباب أيضاً، فللمتصوفة قدرات أرقى من قدرات البشر المعتادة، وذلك أنهم عارفون بالله قريبون من الحقيقة. ويروى عن الأقصري كرامات منها رؤية النبي ولقاؤه الخضر، فقد كان الأقصري في طريق زيارته للسيد القناني، فلقى الخضر، وسأله النصيحة، فحضره على تقوى الله في السر والعلن، وحذره من الرياء وعدم البكاء على ما فاتته من الدنيا.. والحرص على العمل الصالح^(٤٣).. وشخصية الخضر حاضرة دوماً في أدب الصوفية، وقصته مع النبي موسى عليهما السلام مروية في القرآن (الكهف: ٦٧-٨٢)، وقد استشهد بها الصوفية في أشعارهم على نحو ما فعل ابن الفارض (ت ١٢٣٤م) في تائيته الشهيرة إذ قال:

قتلت غلام النفس بعد إقامتي الـ .. جدار لأحكامي وخرق سفينتي

(ديوان ابن الفارض: ط. صادر، بيروت، ١١٢)، وأما جوتته (ت ١٨٣٢)

فقال في ديوانه الشرقي: "سعيد ينبوع الخضر شاباً من جديد"^(٤٤).

مولد السيد أحمد البدوي: (٥٩٦هـ/ ١٢٠٠م):

تكاد تقتزن طنطا - في المخيلة الشعبية - بذلك الفارس المثلّم أو ذي اللثامين الذي قدم من فاس بالمغرب بعيد موقعة حطين أي في عصر الصدام والحروب الصليبية والتهديد المغولي. ولعل ازدهار طنطا (طندتا) التجاري يعزي - ضمن أسباب أخرى - إلى مقام البدوي، الذي يعد محجاً تهوي إليه القلوب من كل صوب

وحذب. بل إن مؤرخنا الكبير سعيد عاشور يروي أن بعض المريدين بالغوا فحدثوا عن زوار يأتون من الهند وأقاصي آسيا ليرفعوا من شأن ذلك الولي^(٤٥).

ويروى علي مبارك أنه اتفق أن البدوي توفي ثاني عشر ربيع الأول، ولعل ذلك من كراماته أيضاً، فصار يحتفل بمولده (وهو هنا يوم وفاته) في ذكرى مولد النبي^(٤٦)، فأية كرامة هذه؟ وأما مولده الصغير فعرف بالمولد الشرنبلالي، وذلك أنه حضر لزيارة مقام أستاذه في غير موعد مولده، فصار يحتفل بزيارته سنوياً. وأما المولد الثالث للبدوي، فهو المولد الرجبي نسبة إلى الشيخ الرجبي الأحمدي الذي زاره لتجديد عمامته، لذا يعرف بمولد لف العمامة. وبلغت محبة البدوي شأواً كبيراً حتى صار الاحتفال بمولده الكبير يدوم نحو ثلاثة أسابيع أحياناً بحيث يوافق ختامه ليلة الثاني عشر من ربيع أول^(٤٧). وكان أوليا جلبي ممن وصف مولد البدوي وغيره من أولياء الله حينما زار مصر في القرن السابع عشر.

من كرامات السيد البدوي:

عرف شيخنا بذى اللثامين لقوة نور وجهه التي يتوجب الوقاية منها! وروي عن إحيائه الموتى، فقد سألته امرأة أن يرد صغيرها المتوفي، فأحياء لها الله ببركة دعاء الشيخ وبركة جده عليه الصلاة والسلام. كذلك أمات البدوي جمال فاطمة بنت برى، وكانت عدتها سبعة آلاف ثم أحياءها - بأمر الله - في طرفه عين^(٤٨). والاحتكام إلى المنطق في مثل هذه الأمور ليس في صالح أرباب الكرامات.

المولد وأدب السيرة:

نسجت البطولات الأسطورية حول أبطال السير والمغازي مثل ذات الهممة والبدوي والشاذلي، وسيف والظاهر.. الخ. السيرة إذن قد تكون لبطل شعبي أو ولي صوفي أو قائد سياسي أو عظيم ما. وأول الأبطال وعظيمهم هو محمد عليه السلام، الذي بشرت بمقدمه سيرة عنتره العبسي، وسيرة سيف بن ذي يزن. إذ سأل عبد المطلب هبل عن الرجل الصالح القادم: متى يأتي؟ فرد هبل: "لما أينع النخل في يثرب وحل الجوع والغلاء في المغرب. لما تهدم إيوان كسرى.. لما علق على الكعبة قصيدته فارسي بني عبس الأسمر"^(٤٩). وأما انتصارات ابن ذي يزن على

أ. فايز على

الأحباش، وهو سليل ملوك حمير، الذي يوحد العرب، فكانت إرهاباً بمجيء محمد^(٥٠).

صور من الاحتفالات:

للموالد منطقها الحيوي الذي يعبر عن روح الشعب كما تقدم. ففي موالد القاهرة حسب وصف علي مبارك "تروج البضائع سيما الحلوى والحمص والفول والترمس والفسق، وأصناف المأكولات، وينتفع بعض الفقراء وطوائف الشعوذة، كالحواة وخيال الظل والمراجحية.. وتنال خدمة الأضرحة من النذور والصدقات أضعافاً.. إن المجاورين لمحل المولد يعملون وقداًت وختمات وأذكراً وولائم.. وفي الموالد الكبيرة مثل مولد النبي والحسين والشافعي تكثر الحركة.. وتتسع دائرة اكتساب الخدمة.. وتكثر الولائم والوقداًت"^(٥١).

وصف دال على أن المولد ظاهرة مركبة متسعة، ذات امتداد زمني إذ تعبر عن عادات أصيلة، ومكاني إذ يلتقي في المولد أناس من شتى الاتجاهات. المولد إذن معرض حي لفنان هو الشعب بأسره، وساحته ممتدة في الزمان والمكان. أما جومار - من عصر بونابرت - فيصف مولد السيدة زينب حفيدة الرسول، فيذكر حملة المشاعل (المشاعلية) على رأس الموكب ثم المغنين والعازفين وحملة المصابيح (في أشكال هرمية). وأما الدكاكين فتظل مفتوحة وقد زينت بفوانيس ورقية كثيرة. "ويحتفل بمولد السيدة أيضاً بأنوار الزينة الكبيرة. ففي اليوم الأول، في التاسعة مساءً يتحرك الموكب في مقدمته أفراد يحملون المشاعل - عبارة عن أقفاص من حديد تحرق فيها أخشاب صمغية، ثم يأتي المغنون والآلاتيه على دفعات متتالية.. يتبعهم ستون إلى ثمانين رجلاً يحملون أهراماً من المصابيح، ويختلط بهم رجال نقاء.. ينشدون الابتهالات الدينية، وفي نهاية الموكب يأتي اثنا عشر رجلاً متشحين بالبياض ثم يختم شيخ الجامع الموكب"^(٥٢). المحبة لله وأوليائه، والمحبة للعامة والخاصة. ربما كانت هي عنوان ذلك الاحتفال الشعبي الخالد المسمى بالمولد. ومقصودنا الآن أن نعرف باحتفال شيعي قريب من المولد، وهو المأتم أو التعزية، وفيه عناصر درامية ربما كانت أوضح مما في المولد.

المأتم (التعزية):

كان لاستشهاد الحسين رضي الله عنه في كربلاء أثره في نفوس المسلمين لاسيما الشيعة، الذين دأبوا على الاحتفال به (ذكرى عاشوراء) والصلة قوية بين المأتم ومسرحية آلام أوزير كما ترى فائزة هيكل^(٥٣). وقد وقفنا على بعض أوجه الشبه بين موالدنا الحالية ومسرحية أوزير. بيد أن المأتم الشيعي عمل تمثيلي درامي، ومشاهده الرئيسية هي: ما قبل كربلاء، وتحكي عن فاطمة بنت محمد وعلي، ثم مشهد آلام الحسين، وأخيراً ما بعد كربلاء. ثمة تجسيد لأشخاص آل البيت وأعدائهم، وموسيقى وحوار، وإنشاد ديني، وثمة جوقة تتشد وتردد^(٥٤).

نرى مشهد وفاة فاطمة، وزوجها علي يجري معها حواراً حزيناً، وفي مشهد آخر يقوم المداخون (روزي كان) من شيعة إيران بتلاوة المديح والثناء في الحسين، ويؤازرهم الندابون (نوح كان) يندبون ويعددون، ويتجاوبون مع الروزي كان. والبعض ينسبون طقوس العويل والندب إلى ما كان يجري في عبادة أدونيس - تموز، وقد يصح هذا. ولكن الأولى الرجوع إلى طقوس أوزير، فهو نموذج الشهيد الأصيل، وما كانت تقوم به إيزيس ونفتيس من نذب وبكاء. ونفتيس من نص المأتم: "ابن سعد: إن كراهيتك العمياء تفقدك الصواب.. شمر: سأقتل الحسين بنفسه".^(٥٥) ولكن موقف القتل ذاته يتحاشى (كما في دراما آلام أوزير المصرية).

وقد ولع شعراء بصياغة ملاحم وحكايات دينية، منها قصيدة في وصف الدلدل، وهو المطية التي ورثها علي عن محمد. يقول سليمان تيماتي من خلوتيه القرن ١٨م: "حين يمتطي على الدلدل.. تهلع قلوب الكفار من الرعب. أنت صاحب ذي الفقار الذي يحتقر كل منكر. ويقطع رأس كل كافر"^(٥٦). ويصور الدلدل بغلة بيضاء. أما ملحمة كربلاء فقد استلهمها نعيم فراشري الشاعر الألباني، فنظمها شعراً منذ سنة ١٨٩٢ في عشرة آلاف بيت. قال: "يا الله، لأجل كربلاء. لأجل الحسن والحسين.. والأئمة الاثني عشر.. لا تدع ألبانيا تسقط أو تتمزق.. لتبق خالدة.. ليبقى الألباني بطلاً.. ليموت في سبيل وطنه كمات المختار في سبيل الحسين"^(٥٧).

المولود في الأدب

المدائح النبوية والمولد

عرف العرب منذ جاهليتهم مديح الملوك والعظماء.. ولم يكن شعر العرب كله مديحاً، ولم يكن المديح كله رخيصاً ولا أجوف. فكان زهير بن أبي سلمى حكيم الجاهلية وصاحب المعلقة الثالثة لا يمدح الرجل إلا بما فيه كما قال عنه عمر بن الخطاب رضي الله عنه^(٥٨).

وقد تقدم أن ثمة إشارة إلى مقدم محمد وبعثته في سيرة عنتره العبسي، وهو صاحب المعلقة السادسة، الذي ود الرسول صلى الله عليه وسلم لو قابله فيما يروى عنه، وذلك لسماحته ونجدته وكرم خلقه^(٥٩). والتقى الرسول ابنة حاتم الطائي الشاعر الكريم، وكانت أسيرة فأطلق سراحها.

وقد شاعت الأقدار أن يلتقي الرسول بابني زهير: كعب وبجير: على نحو ما سنوضحه توأ. وسيكون كعب صاحب البردة الشهيرة في مديح الرسول، والمؤسس الحقيقي لفن المدائح النبوية. وإن كان الأعشى ميمون بن قيس (ت ٦٢٩م) قد سبق كعباً، وذلك إن صحت نسبة دالتيه إليه، ومطلعها:

ألم تغتمض عيناك ليلة أرمدا .. وعادك ما عاد السليم المسهدا؟

كذا نسبت لأبي طالب عبد مناف بن عبد المطلب غير قصيدة في مدح الرسول، ثم عرفت مدائح كثيرة لحسان بن ثابت الأنصاري (٥٦٣-٦٧٤هـ) الملقب بشاعر الرسول^(٦٠). ومن جيد قوله في محمد:

خلقت مبرأ من كل عيب .. كأنك قد خلقت كما تشاء

وقصيدته الشهيرة التي مطلعها:

إن الذوائب من فھر وإخوتهم .. قد بينوا سنة للناس تتبع

بردة كعب:

من يرد دليلاً على حلم الرسول، وكيف تتبدل به المواقف إلى النقيض فليُنظر في قصته مع كعب، فقد تأمر ليقُتل محمداً، فأبيح دمه حتى نصح بجير أخاه أن يذهب إلى محمد طالباً العفو، لأنه لا يقتل من جاءه معتذراً. فذهب وأنشده:

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول .. متيم إثرها لم يفد مكبول
وعرض بالوشاة، واستعطف الرسول ومدحه، فقال:
تسعى الوشاة بجنبها وقولهم .. إنك يا ابن أبي سلمى لمقتول
إلى قوله:

أثبتت أن رسول الله أوعدني .. والعفو عند رسول الله مأمول
لا تأخذني بأقوال الوشاة ولم .. أظلم ولو كثرت عني الأقاويل
إن الرسول لنور يستضاء به .. مهند من سيوف الله مسلول
فإذا بالرسول يحسن استقباله، والإصغاء إليه حتى إذا فرغ من قصيدته كافأه
ببردته، ولذلك عرفت هذه اللامية بالبردة^(٦١)، التي ستبقى فريدة في بابها وإن
اشتهرت بردة البوصيري التي سنتحدث عنها الآن.
البوصيري (٦٠٨ - ٦٩٦هـ):

كان أحد أبويه من دلاص والآخر من بوصير، وهما من أعمال بني سويف،
فعرف بالدلاصيري أو البوصيري (الأباصيري). وقد وسد ثري الإسكندرية بجوار
ضريح معلمه المرسي أبي العباس الذي كان بدوره من مريدي أبي الحسن الشاذلي
(ت ١٢٥٨م)^(٦٢). وللبوصيري على الأقل عشر قصائد طويلة في مدح الرسول،
ولكن بردته (الميمية) ذاعت شهرتها، فصارت تتلى في الموالد والحضرات الصوفية
تقرباً إلى الله تعالى. ولما كان زمان البوصيري قد شهد فصلاً من فصول الصدام بين
الغرب والشرق، فقد جند شاعرنا قلمه للدفاع عن الإسلام ورسوله ووطنه ضد الغزاة
الصلبيين، منتقداً سنة الجائرين من الحكام. ومن مدحياته الشهيرة الهمزية^(٦٣):

كيف ترقى رقيق الأنبياء .. يا سماء ما طاولتها سماء؟

وأما بردته فمطلعا:

أمن تذكر جيران بذى سلم .. مزجت دمعاً جرى من مقلّة بدم؟
وهي على وزن ميمية ابن الفارض وروياها، وكلتاها في معارضة ميمية
كعب بن زهير. ولبردة البوصيري قصة. يقول: "أصابني فالج أبطل نصفي، ففكرت
في عمل قصيدتي هذه، فعملتها، واستشفعت بها إلى الله تعالى.. وكررت إنشاؤها،

أ. فايز على

ودعوت وتوسلت ونمت، فرأيت النبي صلى الله عليه وسلم، فمسح وجهي بيده المباركه، وألقى علي بردة، فانتبهت - ووجدت في نهضة، ففقت وخرجت من بيتي..^(٦٤) شفى الشاعر من الشلل إذن في الحلم قبل أن يشفى في الواقع. من النقاد من أنكر الواقعة بل أنكر المرض ذاته، ومنهم من قبل. وتلك القصة من المرويات الشعبية التي نرى أن الاعتقاد فيها لا يضر. ولا يجوز أن نحتكم إلى العقل في مثل هذه الأشياء، فليقبلها من شاء أو ليرفضها^(٦٥). وقد أشار بعض الشعراء إلى أنهم رأوا الرسول. قال البارودي في ملحمة النبوية: "كشف الغمة في مدح سيد الأمة":

حبي بطلعته الغراء مفخرة لما التقيت به في عالم الحلم
وقد حباني عصاه فاعتصمت بها في كل هول فلم أفزع ولم أهم

فصول البردة:

فصلها الأنصاري وهي: الغزل وشكوى الهوى، والتحذير من هوى النفس، وفي مديح النبي، ومولده عليه السلام، وفي معجزاته، وفي شرف القرآن ومدحه، وفي حدث الإسراء والمعراج، وفي جهاد النبي وحروبه، وفي التوسل برسول الله ثم في المناجاة وعرض الحاجات^(٦٦). وهذا الترتيب الحر أتاح للبوصيري حرية أكثر في الإبداع فيما التزم البارودي سيرة الرسول كما رواها ابن هشام^(٦٧). يقول البوصيري في المطلع الغزلي:

أمن تذكر جيران بذي سلم مزجت دمعاً جرى من مقلّة بدم؟
أم هبت الريح من تلقاء كاظمة وأومض البرق في الظلماء من إضم؟
فما لعينيك إن قلت اكفاهمتما وما لقلبك إن قلت استفق يهم؟
أحسب الصب أن الحب منكتم ما بين منسجم منه ومضطرم
لولا الهوى لم ترق دمعاً على طلل ولا ارقّت لذكر البان والعلم

نلمس صدق عاطفة الشاعر، إذ يذكر معاهد الأحبة هناك حيث ولد محمد، وربما زاده شوقاً إليها بعد المسافة. ويجري حواراً مع من يلومه في حب البيت - على سبيل المجاز المرسل - متشبهاً بالعذريين، معرضاً بأصحاب الغرض^(٦٨). ومع المحسنات من جناس وطباق ومراعاة النظير... الخ، لا نلمس أي تكلف أو تعسف.

نعم الاستهلال ذلك. ونحيل إلى مطلع ميمية ابن الفارض لنتيح للقارئ الكريم بعض المقارنة. يقول^(٦٩):

هل نار ليلي بدت ليلاً بذي سلم :. أم بارق لاح في الزوراء فالعلم؟
أرواح نعمان هلا نسمة سحراً :. وماء وجرة هلا نهلة بفم؟
يا سائق الظعن يطوي البعيد معتسفاً :. طي السجل بذات الشيخ من إضم
عج بالحمى يا رعاك الله معتمداً :. خميلة الضال ذات الرند والخزم
وقف بسلع وسل بالجزع هل مطرت :. بالرقمتين أثيلات بمنسجم؟
يعدد ابن الفارض أيضاً أسماء الأماكن والأحياء الحجازية، وكأنه يرافق
زوار قبر الرسول. وأما حديث الظعن أي الارتحال فيذكرنا بالمطلع الغزلي الجاهلي،
وبأن الدنيا دار رحيل وهي أشبه بالصحراء القاحلة التي لا يجمعها إلا ذكر الأوبة.
وأما مطلع البارودي فيركز على خاطرة طريفة، وهي إحياء الأطلال المحبوبة بالقطر
حتى تبدو في أجمل حلة خضراء زاهية^(٧٠):

يا رائد البرق يعم دارة العلم :. واحد الغمام إلى حي بذي سلم
وإن مررت على الروحاء فامر لها :. أخلاف سارية هتانة الديم
من الغزار اللواتي في حوالبها :. ري النواهل من زرع ومن نعم
إذا استهلكت بأرض نعمت يدها :. برداً من النور يكسو عاري الأكم
تري النباتات بها خضراً سنابله :. يختال في حلة موشية العلم
وقد يظن أن أوروبا القرون الوسطى لم تعرف الغزل الرفيع هذا. بل ظهر
شعراء الغزل العفيف في بلاط الإمبراطور فردريك فون هوهنشتاوفن (ت ١٢٥٠م)
في بالرمو^(٧١) على سبيل المثال..

الإسراء والمعراج:

يؤمن المسلم بحدث الإسراء والمعراج، وإن كان ما ورد في شأنه من
روايات محل اختلاف بين علماء الفقه والحديث^(٧٢). وطبيعي أن يتسع خيال الشاعر
لروايات فرعية وتفاصيل لم يرد بشأنها أحاديث مؤكدة. والجميل أن البوصيري تخيل
موكب الرسول الكريم كأنه يراه رأى العين فيصفه قائلاً:

يا خير من يمم العافون ساحته :: سعيًا وفوق متون الأينق الرسم
سريت من حرم ليلاً إلى حرم :: كما سرى البدر في داج من الظلم
وقدمتك جميع الأنبياء بها :: والرسل تقديم مخدوم على خدم
وأنت تخترق السبع الطباق بهم :: في موكب كنت فيه صاحب العلم
استخدم البوصيري فعل سرى (من الإسراء أي السفر ليلاً)، وشبه الرسول
الكريم بالبدر في سراه، وصور موكب الرسل وعلى رأسه محمد، وإن لم يوفق في
قوله، مخدوم على خدم" في شأن الأنبياء الكرام. وصور صعودهم في أجواز السموات
العلا.. ومن حق الشاعر أن يطلق لخياله العنان في مثل هذه الحال.
وأما قوله الذي يكرره المنشدون كثيراً أثناء تلاوة القصيدة:

مولاي صل وسلم دائماً أبداً :: على حبيبك خير الخلق كلهم
فيَعتمد على قوله تعالى: "إن الله وملائكته يصلون على النبي يا أيها الذين
آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليماً" (الأحزاب: ٥٦).

ويقودنا الحديث إلى "المعراج" الفارسي، وهو فن عظيم الشأن، ومن رواده
فريد الدين العطار (قتله المغول سنة ٦٢٧هـ)، في معراجه المسمى "مصيبتنامه"
فهي معراج يقطع فيه المريد بقيادة المرشد أربعين مرحلة تشمل كل مقامات الصوفية
وأحوالهم وعوالم الملائكة والكواكب والأفلاك". ولا غرو أن يكون لكل من أولياء الله
كأبراهيم الدسوقي مثلاً معراجه الخاص به. ويكفي القول إن المعراج أدب سام عظيم
(خاصة عند الفرس)، وقد كان له أثره في "الكوميديا الإلهية" لدانتي شاعر إيطاليا
الشهير. وقد أفاض تشير ولي وبالاتيوس وغيرهما في الحديث عن ذلك^(٧٣). أما
البارودي فيتوقف ملياً عند مشهد اختباء الرسول وصاحبه بالغار: "إلا تنصروه فقد
نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين إذ هما في الغار.." (التوبة: ٤٠).
فيصور شاعرنا زوج الحمام وبيت العنكبوت الذي نسجه على فم الغار، فبدا وكأنه
خيمة "حاكها لبق بأرض سابور في بحبوحة العجم". قال واصفاً:

فما استقر به حتى تبوأه :: من الحمام زوج بارع الرنم
بني به عشه واحتله سكناً :: يأوي إليه غداة الريح والرهمل

إلفان ما جمع المقدار بينهما :: إلا لسر بصدر الغار مكتتم
والمقطع طويل، ويعد من أرق الشعر وأعذبه، إذ يظهر زوج الحمام حارساً
أميناً، وقد جمع الغرام بينهما، وأراد القدر أن يلتقيا لحماية من بالغار، كما وصف
الشاعر هذين الطائرين في السكون والحركة، وعزا احمرار قدم الحمامة إلى أنها
خاضت في دمه الذي يشبه الدم القاني، لينقلنا إلى جو منفاه الآسي. وفي بعض
الوصف نشعر بحال الدعة والهناة التي لا يحس بها إلا الطائر^(٧٤). ونعاود البردة
لنقف على مواضع التشابه والالتقاء بين الشاعرين. كما في قول البوصيري:

وما حوى الغار من خير ومن كرم :: وكل طرف من الكفار عنه عم
فالصدق في الغار والصدق لم يرما :: وهم يقولون: ما بالغار من أرم
ظنوا الحمام وظنوا العنكبوت على :: خير البرية لم تنسج ولم تحم
وقاية الله أغنت عن مضاعفة :: من الدروع وعن عال من الأنطم^(٧٥)
وذلك وصف جميل، فالغار مشتمل على الخير والكرم والصدق ومعه
الصدق أبو بكر. ووقاية الله أقوى من الدروع والقلاع (الأنطم). ويتلاعب البوصيري
بالألفاظ: لم يرما، من إرم (إنسان).

فإذا رجعنا إلى البارودي وجدناه يصف العنكبوت وقد صنع خيمة بديعة
مشدودة الأطناب كأنها من صنع سابور المشهورة بصنع السجاد. مبالغة حببها إلى
السمع جمال التصوير. وكم من مبالغات يمجه الذوق!
جهاد الرسول:

أبدع البوصيري في وصف جهاد الرسول وصحبه، وإن كنا نرى أن البارودي
أفاض في وصف الحروب التي خاضها، فجاء وصفه كأنه يعايشها. اهتم البوصيري
بنبات الصحابة وفدائيتهم:

من كل منتدب لله، محتسب :: يسطو بمستأصل للكفر مصطلم
هم الجبال، فسل عنهم مصادمهم :: ماذا رأى منهم في كل مصطلم
وسل حنيناً وسل بدراناً وسل أحداً :: فصول حنن لهم أدنى من الوخم

وواضح أنه لا يسترسل في وصف الحروب مكتفياً بذكر أسماء الغزوات ولكن فن وصف الحرب نجده مكتملاً عند البارودي. وتأمل في الأوصاف التالية تجدها شكلية بعض الشيء. يقول البوصيري مستكماً:

شاكى السلاح لهم سيما تميزهم :: والورد يمتاز بالسيما من السلم
تهدي إليك رياح النصر نشرهم :: فتحسب الزهر في الأكمام كل كمي
كأنهم في ظهور الخيل نبت ربا :: من شدة الحزم لا من شدة الحزم
ومن تكن برسول الله نصرته :: إن تلقه الأسد في أجامها تجم
إن استخدام الورد والزهر في تشبيهات حربية كهذه منتقد، إذ لا ينهض بتصوير رهبة الحرب وفتكها. ومع حسن تقسيم العبارة يولع البوصيري بالمحسنات (الجناس: سيما، سيما وشدة وشدة، أكمام وكمي.. أجامها تجم... إلخ). وهو أقل سماجة من سجع نظام البديعيات، وأقل تكلفاً من ابن الفارض، ولكنه لم ينل درجة الإجادة العالية في كشف الغمة. وللمقارنة ننتخب أبياتاً يسيرة من عند البارودي - في نفس الغرض: يقول:

تقسمتهم يد الهيجاء عادلة :: فالهام للبيض والأبدان للرخم
كأنما البيض في الأيدي صوالجة :: يلعبن في ساحة الهيجاء بالقمم
أي أن السيوف حظيت بالرؤوس، فيما نالت الرخم الأبدان أي جثث القتلى.
وبدت السيوف صوالجة (جمع صولجان) تلعب بالرؤوس كأنها كرات (في لعبة الصولجان والكرة عند المماليك). وفي أبيات أخرى يستبطن البارودي حال الهزيمة بعد الزهو والخيلاء، فيقول مبكناً الكفار:

فأين ما كان من زهو ومن صلف :: وأين ما كان من فخر ومن شمم؟
جاءوا وللشر وسم في معاطسهم :: فأرغموا والردي في هذه السيم
من عارض الحق لم تسلم مقاتله :: ومن تعرض للأخطار لم ينم
الاستفهام الإنكاري بليغ يشي بحال الهزيمة المخزية، والفخر الضمني.
والبيت الثاني يشرح ويفضل ماجاء في البيت الأول، ليستخلص الحكمة في البيت

المولد بين التاريخ والأدب

الثالث في تصعيد متنقن. أما المحسنات فيحسن توظيفها قائلًا في الصحابة على نحو ما فعل البوصيري. يقول:

من كل معتزم، بالصبر محتزم :: للقرن ملتزم، في البأس مهتزم
طالت بهم هم نالوا السماك بها :: عن قدرة وعلو النفس بالهمم
بيض أساوره غلب قساورة :: شكس لدي الحرب مطعمون في الأزم
طابت نفوسهم بالموت إذ علموا :: أن الحياة التي يبغون في العدم
فجانس في البيت الأول أربعا، متبعاً التقسيم الرباعي للبيت إعلاء للجرس. ثم عاد للجناس في البيت الثالث، وفي: طالت وطابت. إنه جناس ظاهر لكنه غير متكلف إذ يخدم العبارة والمعنى.

وهذه المجموعة تشف عن نفس قائلها ذي الهمة العالية كما يظهر في فكرياته الكثيرة، وعن تمكن البارودي من فنون القول.

وأما شوقي في "تهج البردة" فوصف الحرب وصفاً فيه رقة لا تلائم جو الحرب العابس، وما تقضي به الحرب من غلبة الغضب وشمول العبوس على حد قول زكي مبارك^(٧٦).. اسمعه يقول:

مهما دعيت إلى الهجاء فعت لها :: ترمي بأسد ويرمي الله بالرجم
علي لوائك منهم، كل منتقم :: لله مستقتل في الله، معتزم
مسبح للقاء الله، مضطرم :: شوقاً، على سابح كالبرق مضطرم^(٧٧)
فالنبي يرمي بجنوده الشجعان كالأسود، والله يرجمهم كالشيطان، وقد انضوا
كلهم تحت لوائه، واضطرموا شوقاً على جيادهم، تلك التي تضطرم أيضاً كالبرق.
التوسل:

من أهم الأغراض في البردة، وقد شاعت على ألسنة الشعراء في العصر المملوكي العثماني تحديداً. يقول البوصيري:

خدمته بمدح أستقبل به :: ذنوب عمر مضى في الشعر والخدم
فياخساره نفس في تجارتها :: لم تشتر الدين بالدنيا ولم تسم
ومن يبع أجلاً منه بعاجله :: يبين له الغبن في بيع وفي سلم

إن آت ذنباً فما عهدي بمنقَص :: من النبي ولا حبلى بمنصرم
ولم أرد زهرة الدنيا التي اقتطفت :: يدا زهير بما أثنى على هرم^(٧٨)
والأخيلة مستقاة من عالم التجارة والتسوق على نحو ما نجده في القرآن
والحديث، ولكن ضرب المثل بزهير فيه نظر لأن زهيراً لم يكن يطلب المال والدنيا
بل حقن الدماء بين المتحاربين.
والبارودي بلا شك نظر في البردة ساعة قال:

خدمته بمديحي فاعتلوت علي :: هام السماك وصار السعد من خدمي
وكيف أرهب ضيماً بعد خدمته :: وخادم السادة الأجواد لم يضم
أم كيف يخذلني من بعد تسميتي :: باسم له في سماء العرش محترم؟
فمدحه رأسمالي يوم مفتقري :: وحبه عز نفسي عند مهتضمي
والسياق ينم عن فخر البارودي بنفسه (اعتلوت على هام..) وثقتّه في
الرسول: الاستفهام الإنكاري في البيت الثاني والثالث، وأما "رأسمالي" و"عز نفسي"
المساوقة لها فمن إتقان القول الذي تستحبه الأذن. وهذه من المرات القليلة التي يفخر
فيها البارودي بكونه خادماً - بلي ، خادماً للسادة الأجواد، كما يفخر بفقره حيث مديح
الرسول يغنيه، فأني غني هذا.. كل تلك المعاني تعكس لنا صورة البارودي صادقة،
فهو فارس لا يتعالى ولا يتكبر، ولكن يشيد بالفضل والفضائل^(٧٩).

البردة والبديعيات:

أنقذ البوصيري فن المديح النبوي وحرره من قيد المحاكاة السطحية والتقليد،
ولكن سرعان ما ظهرت البديعيات منذ القرن الرابع عشر الميلادي، والبديعية تلتزم
بحر "البردة" وقافيتها الميمية، ويشتمل كل بيت فيها على نوع بديعي أو أكثر. والغالب
أن صفي الدين الحلبي (١٢٧٨ - ١٣٤٩) هو صاحب أول بديعية، وإن كان الأمر
موضع خلاف^(٨٠). وقد أحصى نحو مائة بديعية، منها اثنتان للشيخ عبد الغني
النابلسي (١٠٥٠ - ١١٤٣هـ) صاحب رحلة مصر والشام والحجاز^(٨١). ومنها
بديعية في مدح عيسى عليه السلام. نظمها إبراهيم خيكي الحلبي، التي قال في
ختامها:

من فبر بر حسابي يوم محتكمي .: أرجو اخلاص وأعطي حسن مختتم
وللشيخ ناصيف اليازجي بديعية ختامها:

بنس الحياة التي طابت أوانها .: إن لم يكن طاب منها حسن مختتم
ولمحمود صفوت الساعاتي - الذي عاصره البارودي - بديعية متكلفة..
وهكذا دواليك. واللافت أن الحلبي روى إصابته بالفالج أيضاً كما حدث للبوصيري
وشفاه منه. وفيما يلي نورد استهلال بعضها. قال ابن جابر الأندلسي^(٨٣):

بطيبة أنزل وحيي سيد الأمم .: وانشر له المدح وانشر طيب الكلم
وذلك مطلع الحلة السيرا، وطيبة هي مكة. وأما الموصلني فقال:

(براعتي) تستهل الدمع في العلم .: قد (استهلت) دموع العين كالعجم
وهو مطلع بديعيته "عنوان الرضوان في مدح سيد ولد عدنان"^(٨٣). وقد نعد
الشاعر أن يذكر براعة الاستهلال هنا وحسن المختتم هناك لأن كليهما من المحسنات
البديعية.

ومن المحسنات المبالغة. قال فيها ابن جابر الأندلسي: "أن يبالغ في المدح
وغيره إلى مبلغ بعيد حتى يتوهم السامع أن الموصوف فيها وصفته به غير بالغ إلى
غايته"^(٨٤) ويسمى هذا التبليغ، ومنها الإغراق والغلو، وقد جمعها في أبيات:

يعم نبياً تبارى الريح أنمله .: والمزن من كل هامى الودق مرتكم
لو قابل الشهب ليلاً في مطالعها .: خرت حياء، وأبدت بر محترم
تكاد تشهد أن الله أرسله .: إلى الورى نطف الأبناء في الرحم
لو عامت الفلك فيما فاض من يده .: لم تلق أعظم بحرأ منه إن تعم
تحيط كفاه بالبحر المحيط فلذ .: به ودع كل طامي الموج ملتطم

تلك والله مهارة أشبه بمهارة لاعب الأكروبات، وكان ذلك العصر مما
ازدهرت فيه فنون البهلوانات والمشى على الحبال ازدهاراً منقطع النظير، فلم لا يتأثر
بها الشعر أيضاً؟ قيمة هؤلاء الشعراء (البديعيين) أنهم يظهرون لنا حقيقة إبداع شاعر
قال هذه الأبيات:

محمد خاتم الرسل الذي خضعت .: له البرية من عرب ومن عجم

أ. فايز على

سمير وحي، ومجني حكمة، وندي :. سماحة، وقرى عاف، وري ظم
قد أبلغ الوحي عنه قبل بعثته :. مسامع الرسل قولاً غير منكتم
فذاك دعوة إبراهيم خالقه :. وسر ما قاله عيسى من القدم
أكرم به وبآباء محجلة :. جاءت به غرة في الأعصر الدهم
في حسن تقسيم البارودي عبارته نوع من البديع، ولكن شتان بين بديع
وبديع! أما البيت الأول فيعيد للأذهان قول البوصيري:

محمد سيد الكونين والثقلين :. والفريقين من عرب ومن عجم.
وأما التقسيم الخماسي في البيت الثاني على سبيل الإضافة فيقوى الجرس
ولكن يخرج به عن الإملال. وغزارة الصفات في البيتين الأولين بمثابة تقديم مؤهلات
عظيمة لرسول عظيم. والبارودي بعد قد تحاشي تسبيد محمد وتفضيله على الرسل
الكرام، وإن كان فضله ضمناً بكل تلك الصفات الكريمة. إن هذا السياق التكريمي
يدل على علو كعب النبي محمد في نظر أتباعه بحيث صار نموذجاً متحققاً للفضائل
كلها، عليهم أن يتبعوه.

بلغ من ذبوع احتفال المولد (النبي) أن مولد كل ولي بل أي احتفال شعبي
صار بمعنى ما مولداً. والمولد يستمر - كما اتضح - أياماً، وينتهي بالليللة الكبيرة
التي استوحى منها الفنان صلاح جاهين عمله الملحمي المعروف بالليللة الكبيرة.
وفي التراث التركي يعني "المولد" قصيدة في مديح الرسول صلى الله عليه
وسلم، ولعل أقدمها هي مولد سليمان جلبي (أو سليمان دادة) الذي نظمته سنة
١٤٠٩م، ويقع في ستمائة ثنائية. وقد حظى مولد جلبي - شأنه شأن البردة
بمعارضات كثيرة، وهو عادة ما يتلى في كل مناسبة دينية أو اجتماعية مثل الميلاد أو
النجاح في امتحان ما^(٨٥).

وفي المقطع الذي اخترناه من "المولد" نلاحظ التبجيل الشديد للرسول
باستخدام مفردات من التراث العثماني، مثل التاج والعمامة الخاصين بالسلطين،
فضلاً عن المفردات القرآنية. يقول جلبي: "ينتمي لخير نسل فلا أحد يضاهيه. إنه
العزیز ذو الحسب النامي، الخير المقدس، ذو المهابة، الذي توج بتاج الفضائل.

== المولد بين التاريخ والأدب ==

والجميل الذي تزين بعمامة خير العمل.. إنه الأول والآخر: الأول في الفضل والهداية إلى الصراط القويم، والآخر الذي بعث بشيراً ونصيراً. إنه المبعوث إماماً هادياً لكل البشر، وهو الكريم الذي نرجو شفاعته يوم القيامة. هو المختار ذو أكرم عنصر، كاللؤلؤة المصونة المتفردة..^(٨٦). ولعلنا نلاحظ تشابهاً جذرياً مع بعض ما تقدم من معاني المدائح مثل قول البوصيري بصدد الشفاعاة:

هو النبي الذي ترجى شفاعته .: في كل هول من الأهوال مقتحم
ولعلنا في حاجة إلى التذكير بما ظل بنو عثمان والأتراك كشعب يكونونه من تقدير للنبي محمد (العربي الأمي) وحرصهم على تعلم اللغة العربية، وقرض الشعر، وكان لبعضهم شعر صوفي في غاية الروعة.

نقد التصوف:

من الظاهر أن التصوف زاد انتشاراً عقب سقوط بغداد وما تلاه من فتح القسطنطينية والخروج من الأندلس. انتشر لابو الرقاع والأسمال البالية، وعكفوا على البطالة والتسول في أحيان كثيرة، ولزموا التكايا والعمارات (العثمانية المنشأ). وكانت مصر حاضنة للأولياء القادمين من المشرق والمغرب. وقد انتقد كل من أحمد أمين وتوفيق الطويل^(٨٧) ذلك النمط التواكلي بدعوى التصوف، والحق أن ذلك كله صحيح ولكن بدرجة ما، فلا نكران أنه ظهرت الطرق الصوفية، ومنها المولوية أو الصوفية الراقصة، وكانت - في بعض أوجهها - تأليفاً عبقرياً بين أرباب ديانات مختلفة كما في البلقان وبعض أصقاع أوروبا التي انتشر فيها الإسلام أحياناً عبر التصوف لأنه يبقى الوجه الإنساني الأكثر إشراقاً، وتقبلاً للآخر.. كما بقيت الطرق والأنظمة الصوفية حافظة لتراث العلم والأدب والفنون بما أضفته على المريدين من رابطة قلبية تجاوز الأنانية والذات الفردية.

وأما في مصر، فلدينا نحن المصريين ميراث ثري من عقيدة أوزير وتجلي الأرباب في الطبيعة، وكان لكل ذلك أثره في المخيلة الشعبية التي وجدت ضالتها في مسلك الصوفية (الفناء في الله، وحدة الوجود، مقام الرضا والطمأنينة..). كما كانت الطرق الصوفية - كما يرى المؤرخ العظيم بيتر جران - حاضنة للعلم بمعناه

الشامل، فلولاها لتبدد ما التأم من شمل العلماء في العصر العثماني خاصة. ويظل حديث التصوف متصلاً لا حسم فيه إلى ما شاء الله.

لعلنا إذن في ضوء ما تقدم نعيد النظر إلى التصوف باعتباره إبداعاً شعبياً مصرياً، وتراثاً أصيلاً يتصل لا بتراث الإسلام وحده، بل يمتد إلى ما قبل الإسلام امتداد الحضارة المصرية ذاتها التي أبدعها المصري، ومن ثم فهي ليست حضارة الفراعنة، الذين كانوا مجرد حكام فحسب. أما الموالد فمعرض حي بابض بكل ما تحفظه الذاكرة الجمعية للأمة المصرية عبر عصورها. قد تكون المناسبة إسلامية أو مسيحية، أو مصرية قديمة (كوفاء النيل) ولكنها كلها موالد في العرف الشعبي.

الهامش

١- لاحتفال المولد إذن مظاهر شتى، وخلفها يقوم الجوهر، وهو استلهام الجماهير لعظمة صاحب المولد، وتجديد العهد على محاكاته والافتداء به. ومن المفكرين من رأى أن للصفوة من الأنبياء والقادة والمبدعين دوراً كبيراً في حركة التاريخ. ومن أولئك أرنولد توينبي في: مختصر دراسة التاريخ، التي لخصها سمر فيلد وترجمها فؤاد شبل إلى العربية.

٢- راجع تفصيلاً: ر. أ. نيكلسون: الصوفية في الإسلام، ت. نور الدين شريعة، مكتبة الخانجي، القاهرة ١٩٥١، ص ٤ وما بعدها. وقيل أيضاً أن الصوفية مشتقة من سوفيا أي الحكمة باليونانية وكان أتباع فيثاغورس يسلكون سبيل المجاهدة والتشقق، أو من الصفة كأبي ذر راجع. أحمد أمين: ظهر الإسلام، ط٦، النهضة المصرية، القاهرة، ح٤، ص ١٤٩ وما يليها.

I. Shah, Die Sufis: Botschaft der Derwische, Weisheit der Magier. Eugen verl.. Koeln ١٩٨٠. S. ٧ ff.

٣- هي الأقرب إلى نظرية روح الشعب المرتبطة بالموقع الجغرافي فضلاً عن التراث الروحي للأمة.

٤- راجع تفصيلاً: نيكلسون: المرجع السابق، ص ١١١ وما يليها.

٥- وحلول اللاهوت في الناسوت على هذا النحو لا يعني وحدة الوجود إلا إذا انتفت الثنائية بينهما. لذا كان ابن عربي من المؤمنين بوحدة الوجود، وكذلك كان سبينوزا وجوته (ت ١٨٣٢) العظيم.

٦- اتهم الحلاج بالشعوذة وادعاء الألوهية أو بأنه عصابي، وأنصفه ماسينيون إذ اعتبره صوفياً يجمع بين العقيدة الإسلامية والفلسفة اليونانية. ألف "الطواسين" (يبدأ ب: طس) ولغته عاطفية رمزية غريبة وضع عنه ماسينيون دراسة وافية. ترجمته في: Shah, op. cit., ٢٩٦ ff.

٧- طاف ابن عربي ببلاد منها الأندلس، سابقاً سبينوزا (ق ١٧م) الذي تأثر كثيراً بفكره راجع عنه: R. Jockel, Islamische Geisteswelt von Mohammed bis zur Gegenwart. ٢. Aufl; ٣ lilien Verl. Wiesbaden. ١٩٨١. S. ٢٢٠ ff.

٨- راجع تفصيلاً: أحمد أمين: المرجع السابق: ٤: ١٦١، على سامي النشار: نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام، ط١، دار المعارف، القاهرة ١٩٦٩، ص ٤٣ وما يليها.

٩- كان سقوط بغداد سنة ١٢٥٨م بأيدي المغول أحد أهم الأحداث الفارقة، إذ أكد سيادة العناصر غير العربية في دولة الإسلام.

- ١٠- راجع: محمد مفاكو: الثقافة الألبانية في الأبجدية العربية، عالم المعرفة، عدد ٦٨، الكويت، أغسطس ١٩٨٣، ص ١٢٨.
- ١١- محمد عبده الحجاجي: أبو الحجاج الأقصري - العالم الصوفي. دار التضامن، القاهرة، ب.ت.، ص ١٤٠ ويليها.
- ١٢- سعيد عبد الفتاح عاشور: السيد البدوي شيخ وطريقة، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ص ٢٥٨ وما يليها، وقد أفاض أوليا جلبي في وصف ذلك الاحتفال في "سياحة مصر" حققه محمد عوني عبد الرؤوف.
- ١٣- تفضل مؤرخنا الكبير بإدارة الجلسة الأخيرة من سمينار تاريخ العصر الوسيط، وعلق كعائته تعليقا ضافيا جاءت فيه هذه الملاحظة. كان ذلك يوم ١٥ يونيو سنة ٢٠١١، في الجمعية التاريخية المصرية والسمينار يدخل برعايته عامه التاسع.
- ١٤- تحديدا في قاعة الولادة ذات التصويرات العديدة: راجع: Posener & Anderen, Lexikon Der Aegyptischen kultur. R. Loewit. Wiesbaden. S.S. ٩٩-١٠٠.
- ١٥- فصلنا هذا الأمر في دراستنا: الديانة المصرية منذ لاهوت أون حتى رسالة التوحيد، القاهرة ٢٠٠٢.
- ١٦- كان يحتفل به في ذروة الصيف وقت الفيضان. راجع: سليم حسن: الحياة الدينية، وأثرها على المجتمع في: تاريخ الحضارة المصرية، لنبذة من العلماء، النهضة المصرية، القاهرة، ح ١، ص ٢٥٩ وما يليها. أ. إرمان: الديانة المصرية، هيئة الكتاب، ت. عبد المنعم أبو بكر، القاهرة ٢٠٠٠، ص ٢٢٣. فايز علي: الديانة المصرية: ٢٠٣، أيضا: Posener, op. cit. S.S ٢٢-٢٣.
- ١٧- كان الناس يدخلون المسجد من بابه الواقع خلف صرح المعبد أي بداخله، ثم أصبح المدخل الجديد من خارج المعبد Nogelsenzky Iopaedie: Aegyten, Nagel Verl., Genf ١٩٨١، S.S. ٥١٥-٥١٧.
- ١٨- B. Watterson, Introducing Egyptian Hieroglyphs. Scot. Acad. Press, Edinburgh ١٩٨١. p. ١١٥: s.a. Posener, Lexikon. S. ١٠٣.
- ١٩- تفصيل هذا في البحث الأصلي وفيه تعريف باحتفالات عيد الميلاد وعيد التتويج وعيد آمون (أوبت) عند المصريين القدماء.
- ٢٠- Posener, op. cit., S ١١٣.
- فايز علي: في فلسفة تاريخ مصر، القاهرة، ٢٠٠١، ح ١، ص ٢٢.
- ٢١- W. Budge, Osiris & The Egyptian Resurrection, ٢ vol., Dover Pub., New York ١٩٧٣ (Medici ١٩١١).

== المولد بين التاريخ والأدب ==

- ٢٢- راجع هذه الدراما الشائقة في :
Fairman, The Triumph of Horus. London s.a: Roeder (herausg), Urkunden Zur Religion Des Alten Aegypten, ١. Ausg., E. Diderichs Verl., Kolen ١٩٧٨. S. ١٢٠ ff; s.a. Budge, Osiris. II. p. ٤٧.
- ٢٣- محمد سيد كيلاني: الأدب في مصر في ظل الحكم العثماني، دار الفرجاني، القاهرة، ١٩٨٤، ص ١٠٤.
- ٢٤- هيرودوت يتحدث عن مصر، ت. محمد صقر خفاجة، هيئة الكتاب، القاهرة، ص ١٥٩ وما يليها.
- ٢٥- عن النيل وإلهه حعبي (حابي) راجع:
Budge, The Gods of The Egyptians, Dover pub.. I.ed., New York ١٩٦٩ (London. vol. II. p. ٤٢ ff (١٩٠٤).
- ٢٦- من لم يستطع لأبيدوس سبيلاً كان يرسل بلوحة تذكارية له لتدفن جوار معبد أوزير . راجع:
A. Zayed, Abydos, antiq services organiz.. Cairo; F. Petrie, Abydos: Egypt Exp. Fund, London ١٩٠٢.
- ٢٧- Budge, Osiris. II. p. ١ ff; s.a. Posener. Lexikon, S. ١٨٩ ff;
 وكذا كتاب زيتيه (بالألمانية) عن طقوس أوزير السحرية.
- ٢٨- هيرودوت: المرجع السابق، ص ١٦٥.
- ٢٩- كيلاني: المرجع السابق: ١٠٤.
- ٣٠- هو أبو الحسن محمد بن الحسين الرضى العلوي الموسوي. راجع ترجمته في طه حسين وآخرين: المنتخب من أدب العرب، مط. دار الكتب، القاهرة ١٩٣٢، ج١، ص ٣٣.
- ٣١- الحجاجي: المرجع السابق: ص ٨٧.
- ٣٢- الحجاجي: المرجع السابق: ص ٨٨ وما يليها.
- ٣٣- الحجاجي: المرجع السابق: ١٤٤.
- ٣٤- وضحنا ذلك تفصيلاً في دراسة لنا عنوانها: معبد الأكصر، القاهرة ١٩٨٩.
- ٣٥- انظر ابن القيم الجوزية: زاد المعاد في هدي خير العباد، ١٣٥٣، ١٩٣٤، ج١، ص ٥٢.
- ٣٦- هو أبو حفص عمر البغدادي (١١٤٥-١٢٣٤م) صوفي وفقه شافعي ألف "جذب القلوب" و"عوارف المعارف".. وهو غير السهروردي المقتول (١١٩١).
- ٣٧- أندريه يمون: الحرفيون والتجار في القاهرة في القرن الثامن عشر، ت. إبراهيم جمال الدين، ط١، عدد ٨١٨، أ. للثقافة، القاهرة ٢٠٠٥، ج٢، ص ٧٦٥ وما يليها.

أ. فايز على

- ٣٨- وهي التي تنبأت لأديب ابن لاويوس ملك طيبة (باليونان) بنهايته المأساوية إذ يقتل أباه ويتزوج أمه (جوكاستا). راجع: المعجم الكلاسيكي: ص ٢٥٦ - ٢٥٩ - في : لويس عوض: نصوص النقد الأدبي، ح١، هيئة الكتاب، القاهرة ١٩٨٩.
- ٣٩- حض الرسول على العمل، إذ روي عنه: "خير الكسب كسب يد العامل إذا نصح" (السيوطي: الجامع الصغير في أحاديث البشير النذير، دار الطباعة العامرة بمصر ١٢٨٦هـ، ١: ٣٩٦).
- ٤٠- الغزالي (أبو حامد محمد: ت ١١١١م): مكاشفة القلوب المقرب من علام الغيوب، تح. عبد الله أحمد أبو زينة، دار الشعب، القاهرة، ب.ت ص ٢٩.
- ٤١- أدت العذراء - في المعتقد الشعبي - دور إيزيس (أم الإله حور). وقد نزهها الله في سورة "مريم"، وقال أيضاً: "وإذ قالت الملائكة يا مريم إن الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين" (آل عمران: ٤٢).
- ٤٢- راجع تفصيلاً: مرسيا إلياد: التنسيب والولادات الصوفية، ت. حسيب كاسوحة، وزارة الثقافة، دمشق ١٩٩٩، ص ٢٩ وما يليها.
- ٤٣- الحجاجي: المرجع السابق: ١٧٥.
- ٤٤- من قصيدة هجرة وهي مفتتح ديوان الشرق راجع: J.W. Goethe, West - oestlicher Divan. S. ٣٠٥ ff - in: Goethe Werke. WBG, Darmstadt ١٩٩٨.
- ٤٥- سعيد عاشور: السيد البدوي: ص ٢٥٨ ومواقع أخرى. وجامعه أنشأ على بك الكبير على مقامه الشهير. قارن: الجبرتي: م. س: ١: ٥٠١.
- ٤٦- سعيد عاشور: المرجع السابق: نفس الموضوع.
- ٤٧- سعيد عاشور: المرجع السابق، ويضيف أوليا جلبي أن قصيدة المولد كانت تتلى في مثل تلك الاحتفالات: جلبي: سياحته مصر: ٥٨١ وما يليها عن "احتفال مشايخ الطريقة البدوية بمولد شيخهم... وذلك على عهد السلطان محمد الرابع: ١٦٤٨ - ١٦٨٧.
- ٤٨- سعيد عاشور: المرجع السابق: ١٥٥ وما يليها.
- ٤٩- شينفار: حول نشوء وأسلوب السيرة الشعبية العربية - في: بحوث سوفيتية جديدة في الأدب العربي، دار رانوغا موسكو، ص ٨٣-٨٤. وسيف تحالف مع كسرى لتحرير بلاده من الحبش: أحمد الحوفي: تيارات ثقافية بين العرب والفرس، نهضة مصر، القاهرة ١٩٦٨، ص ١٦ وما يليها.
- ٥٠- راجع ابن كثير (أبو الفداء عماد الدين اسماعيل: ت ١٣٧٢/٧٧٤): صفوة السيرة، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة ١٤٢١/٢٠٠٠، ح١، ص ١١٧ وما يليها.
- ٥١- علي مبارك: الخطط التوفيقية الجديدة لمصر القاهرة، هيئة الكتاب، القاهرة ١٩٨٣، ح١، ص ٢٣١. قارن بوصف الجبرتي للمولدين الحسيني والنبوي في عجائب الآثار في التراجم

- والأخبار، مط الأنوار المحمدية، حـ، ص ٢٤٩. ٣٠٩، وما يليها. وعن احتفالات البكرية بالمولد النبوي: علي مبارك، المرجع السابق: ٣: ٤٤٠.
- ٥٢- جومار: وصف مدينة القاهرة وقلعة الجبل، ت. أيمن فؤاد سيد، ط١، مكتبة الخانجي، القاهرة ١٤٠٨/١٩٨٨، ص ٣١٥-٣١٦. وبريستد حدثنا في فجر الضمير عن طقوس الإنارة لدى احتفال وبواووت وأنوبيس في معبدهما بأسويوط، إذ كانت تبدو الأنوار في الظلام الدامس كجزيرتين منعزلتين.
- ٥٣- في محاضرتها عن المولد بالمعهد الألماني للأثار بالقاهرة في ديسمبر ٢٠١٠.
- ٥٤- راجع: محمد عزيزة: الإسلام والمسرح، هيئة الكتاب، القاهرة ١٩٩٠، ص ٨٦ وما يليها. وقد اطلع المؤلف على النص الفارسي (في ٣٣ مجلساً) بعنوان: جونجي شهادات (نشيد الشهيد). ووصف علي مبارك عادات الأعاجم المقيمين في القاهرة لدى مولد النبي وآل البيت وأول المحرم وليلة عاشوراء: خطبهم وراثياتهم والنوح والتعديد... الخ. راجع: علي مبارك: الخطط التوفيقية: ١: ٢٣١ وما يليها.
- ٥٥- محمد عزيزة: المرجع السابق: ص ١١٠ وما يليها.
- ٥٦- محمد مفاكو: المرجع السابق ١٣٢/١٣٣ والندل نظير البراق. حدث عنه الغزالي في: مكاشفة القلوب: ٢٣٠ وما يليها. قارن:
- Kreiser & Anderen. Lexikon der Islamischen Welt, Kohlhammer, Stuttgart ١٩٧٤, B٢, S. ٢٣١.
- ٥٧- مفاكو: المرجع السابق: ١٥٣.
- ٥٨- وأنه لا يعاقل بين الكلام. راجع محمد بن سلام الجمحي: طبقات الشعراء، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤٠٠/١٩٨٠، ص ٢٩.
- وعن حياة كعب ونتاجه العلمي: ص ٣٧ وما يليها. أيضاً: ديوان كعب بن زهير، صنعة أبو سعيد الحسن العسكري، تقديم حنا نصر الحتي: دار الكتاب العربي، بيروت ١٤٢٩/٢٠٠٨؛ ص ٧ وما يليها.
- ٥٩- عده العلامة حسين المرصفي (ت ١٨٨٩م) من الشعراء الأمراء في: الوسيلة الأدبية وقد ورد في سيرته الشعبية إرهابات ببعثة محمد.
- ٦٠- حسان بن ثابت عرف بشاعر الرسول إذ انبرى للدفاع عنه وعن دعوته.
- ٦١- عن كعب وقصيدته راجع: ابن سلام: السابق: ص ١١ وما يليها، ٢٦-٤٢، Jockel, op. cit.. S. ٦٧٧٢ دخل كعب الإسلام سنة ٩هـ/ ٦٣٠م. كذا: إبراهيم عبد الرحمن: الإسلام والشعر - في حوليات ك. الأداب، مط. ح. ع. شمس ١٩٦٩، مجلد ١٢، ص ٢٦٤-٢٦٥. أيضاً: س.ب.

أ. فايز علي

- ستيتكفيتس: القصيدة والسلطة، ت. حسن البناء، م. ق. للترجمة، عدد ١٥٢٧، ط١، القاهرة ٢٠١٠، ص ٧٩ وما يليها.
- ٦٢- راجع ترجمته في: Jockel, op. cit., S. ٢٤١: كيلاني: الحروب الصليبية وأثرها في الأدب في مصر والشام، دار الفرجاني، القاهرة ١٩٨٥، ص ٤١٥ وما يليها.
- ٦٣- راجع: كيلاني: المرجع السابق: ٥٤ وما يليها. وقارن: ديوان البوصيري، ت. محمد سيد كيلاني، القاهرة ١٩٧٣، مواضع متفرقة.
- ٦٤- ابن شاکر الکتبی: فوات الوفیات، تح. إحسان عباس، دار صادر، بیروت، ح-٣، ص ٣٦٨ ما يليها.
- ٦٥- ویروی عن الحلبي أنه رأى الرسول في المنام فأخذ منه عصاه.. راجع: إبراهيم الدسوقي جاد الرب: حول البردة، مركز ج. القاهرة للنشر، ١٩٩٧، ص ٢١ وما يليها وسيرد عن البارودي نفس الخبر أيضاً.
- ٦٦- أحمد الخزرجي الأنصاري: أجمل المدائح النبوية، دار الأنصار، القاهرة، ب ت، ص ٧ وما يليها .
- ٦٧- هو أبو محمد عبد الملك الحميري البصري (المولد) مصري الدار، شرح سيرة ابن اسحق وكتب سيرته عن محمد علي هديها. ت: ٨٣٣م بالفسطاط. راجع عنه: Jockel, op. cit., S. ٧٨.
- ٦٨- هذا دليل الإجابة (الفنية) الذي يدحض انتقاد النقاد. راجع: فايز علي: الرمزية والرومانسية في الشعر العربي، القاهرة ٢٠٠٣، ص ٦٠ وما يليها.
- ٦٩- ديوان ابن الفارض، تح. كرم البستاني، دار صادر، بيروت ١٣٨٢/١٩٦٢، ص ١٢٨ وما يليها.
- ٧٠- محمود سامي البارودي (ت: ١٩٠٤): كشف الغمة في مدح سيد الأمة، تح. سعد ظلام، دار الشعب، القاهرة ١٩٧، ص ٢٥.
- ٧١- كما في قول فوجلفايد (ت ح ١٢٣٠م) - شاعر بلاط فريديريك الثاني: "عرفت كيف تجرحني. تجرح قلبي وعقلي. فليسامحها الرب على ما فعلته بي. فربما تهتدي ذات يوم". ياومان - أوبرله: عصور الأدب الألماني، ت. هبة شريف، عالم المعرفة، الكويت، ص ٩٧.
- ٧٢- أضافت المخيلة الشعبية كثيراً من الروايات مثل رواية الحمام والعنكبوت.. ومبالغات عن قدم النور المحمدي..
- ٧٣- راجع: سهير القلماوي - محمود مكي: في الأدب - عن شعر الملاحم والمسرح - في: أثر العرب والإسلام في النهضة الأوروبية، إعداد: اليونسكو، ص ١٠٢ وما يليها.
- ٧٤- تكفي مثل هذه المقاطع الوجدانية لتدحض الزعم بأن كشف الغمة مجرد سيرة حياة.

- ٧٥- كني عن محمد بالصدق، وأبي بكر بالصدق. قارن: ابن كثير: صفوة السيرة: ٢: ٥١.
- ٧٦- زكي مبارك: المدائح النبوية في الأدب العربي، دار الشعب، القاهرة، ب.ت: مواضع متفرقة. وعن غزوة بدر: ابن كثير: صفوة السيرة: ٢: ١٧٩. وعن سائر غزواته (أيامه) صلى الله عليه وسلم: مغازي الواقدي. تح. مارسدن جونز، مط ج. أكسفورد، دار المعارف، القاهرة ١٩٦٦.
- ٧٧- أحمد شوقي: الشوقيات - في السياسة والتاريخ والاجتماع، دار العودة، بيروت، ح-١، ص ٢٠٣. ومن قصيدته نهج البردة.
- ٧٨- قارن ذلك بقول شوقي (في: الشوقيات: ١: ١٩٥):
- يزري قريضي زهيراً حين أمدحه .: ولا يقاس إلى جودي لدي هرم
محمد صفوة الباري، ورحمته .: وبغية الله من خلق ومن نسّم
وصاحب الحوض يوم الرسل سائلة .: متى الورود؟ وجبريل الأمين ظمي
- ٧٩- لعل البارودي تأثر بنظامي كنجوي إذ يتضرع إلى الله في مناجاة خاشعة ذات مفردات مشابهة كالخدمة والخشوع والتوسل والتذلّل لله دون خجل. راجع مقطوعته "ضراعة" في: Jockel. op. cit., S.S. ٢١٤-٢١٣.
- ٨٠- راجع تفصيلاً: أحمد أبو زيد: البديعيات في الأدب العربي - نشأتها - تطورها - أثرها، ط١، عالم الكتب، بيروت ١٩٨٣، ص ٤١، ٥٥ وما يليهما.
- ٨١- المرادي: سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر، ط. بولاق ١٣٠١هـ، ٣: ٣٠-٣٨، الجبرتي: عجائب الآثار: ١: ٢٠١.
- ٨٢- أبو زيد: البديعيات: ص ٧٥ وما يليها.
- ٨٣- أبو زيد: البديعيات: ص ٧٨ وما يليها.
- ٨٤- أبو زيد: البديعيات: ص ٧٦ وما بعدها ومواضع متفرقة. أيضاً: إبراهيم الدسوقي جاد الرب: حول البردة، مركز ج. القاهرة للنشر، ١٩٩٧، ص ١٩٧ وما يليها.
- ٨٥- محمد مفاكو: المرجع السابق: ٥١، ١٢٨-١٣٠. وقد ترجم مولد جليبي - فيما ترجم - إلى الألبانية أيضاً.
- ٨٦- Jockel. op. cit., S. ٢٦٢.
- ٨٧- راجع كلاً من: أحمد أمين: ظهر الإسلام: ج ٢: ٦٣ وما يليها، توفيق الطويل: التصوف إبان العصر العثماني، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة ١٩٨٨، ص ٢٢٩ وما يليها.

• • •